الكتابة(*)

تزفيطان تودوروف(**)

ترجمة سعيد بوعيطة

يشير مفهوم الكتابة – بمعناها العام –، إلى كل نسق سيميائي/ Sémiologie: بصري أو فضائي. أما بالمعنى المحدد، فيشير إلى كل نسق غرافي/ Graphique، ذا طبيعة لغوية. وأكثر تحديداً، يمكن التمييز داخل المعنى العام؛ بين مفهوم الميتوغرافيا/ Mythographie ومفهوم اللغوغرافيا Logographie والتي تلتقي اليوم. لكننا غالباً ما نصطدم بمسألة الأسبقية التاريخية.

إن الميتوغرافيا، عبارة عن نسق ذا طابع غرافي.

لكنه لا يرتبط باللغة اللفظية، بقدر ما يُشكل علاقة رمزية مستقلة. إذا علمنا بأن الأنساق الدلالية، تتميز إنطلاقاً من طبيعة المعنى عند تلقي العلامات/ Signes: البصر، السمع، اللمس (التذوق والشم، لا يندرجان في هذه الأنساق السيميائية). واستناداً إلى كون العلامات لها خاصية مؤقتة أو مستمرة؛ فإن هذه الأخيرة تميّز أنساق العلامات المتضمنة في الميتوغرافيا والمتوجهة إلى الرؤية أو اللمس.

تتحقق الميتوغرافيا بواسطة أشكال عدة. نقتصر على المشخصة منها بواسطة مجموعة من الأشياء الطبيعية (مستعملة باعتبارها استعارات ذات أبعاد دلالية). ففي الإرساليات الهامة الموجهة إلى الفُرس، نجد أشياء طبيعية: فأر، ضفدع، طير وخمس ريشات. إن هذا النمط من التواصل، ذا بُعد عالمي. أما في سومر/ Sumatra، فإن اللوتسيين يعلنون الحرب عن طريق إرسال: قطعة خشب منحوتة ومصحوبة بريشة وقطعة صغيرة من الجمر وسمكة. مما يعني أنهم سيواجهون العدو بعدد كبير من الرجال، (يوازي عدد الحَزازات على قطعة الخشب). ويهاجمون بسرعة الطائر (الريشة) وسيجتاحون كل شيء (الجمرة)، وسيغرقون العدو (السمكة).

في مناطق أخرى بأعالي النيل، يضع النياميون –

حيث يدخل غريب أرضهم - سنبلة وريشة وسهم فوق منزل ما. موجهة إلى هذا الغريب. تعني أنك إذا لمست غلاتنا ودواجننا، فسنقتلك.

كما نجد شكلاً آخر من الميتوغرافيا والمتمثلة في ربط العقد على الخيط أو الشريط. تستعمل في الحساب خاصة. في حين نجد علامات تدل على الامتلاك - العلامة - مثلاً - على الأبقار - (لكي لا يفقدها صاحبها). إن أبعد هذه العلامات، هي المتعلقة بأثر الحيوانات أو الإنسان، باعتباره جزءاً من الميتوغرافيا.

إن الجزء الأهم في الميتوغرافيا، يتمثل في الصور المشكّلة بواسطة الخط: بمعنى الرسوم التصويرية المستعملة لتحقيق وظيفة تواصلية. إن هذا النسق من الرسوم، يتحقق بشكل جلي عند إسكيمو/ Esquimaux آلاسكا/ Alaska. إذ عندما يغادرون منازلهم، يتركون على الباب رسالة عن طريق الرسم. تدل على مكان ذهابهم.

إن ارتباط دلالة محددة برسم معين، تتبنى منذ اللحظة التي يتحول فيها هذا الرسم إلى تخطيط مؤسلب/ Stylisé. إنطلاقاً من نمطية الحديث، أكثر من الحدث

الفردي المشخّص. لذا تبقى المكانة التاريخية للبكتوغرافيا/ Pictographie دائماً موضع جدال.

يمكن كذلك توليف الأنساق الميتوغرافيا. لكن ليس استناداً إلى مادتها - كما حددنا من قبل -، لكن اعتماداً على نمط الدلالة التي تعمل على بنائها، فإننا نجد الوظائف نفسها؛ كما هو شأن اللغة اللفظية. إن هذه الوظائف المهيمنة، تمكّن من كشف موضوع واحد (العلامات أو الحزازات Entailles) والوصف (الرسم والأشياء التشخيصية). لكن تجدر الإشارة إلى أنه في جميع الحالات، تكون العلاقة مع اللغة اللفظية غير ضرورية. وقد تصل إلى حد الاستحالة أحياناً أخرى. لأنه يمكن إيجاد كلمة محددة، ترتبط برسم أو شيء معين. بهذا الفهم، يجب تجاوز النظرية التي تربط بين الرسوم التصويرية والجمل (خلافاً لبعض العلامات الأخرى التي تعني الكلمات أو المعاني).

إن الجمل مثل الكلمات. عبارة عن وحدات لسانية Linguistique. أما الميتوغرافيا، فعبارة عن نسق دلالي مستقل.

على الرغم من بعدها الكوني، فإن الميتوغرافيا، لا تهيمن إلا في مجالات محددة التجربة.

أما اللغة، فلها نظرة شمولية. لأن الرسوم التصويرية، تشكّا متوالية مفتوحة وغير منظمة. في حين نجد نوعاً من الترابط في اللغة. لذا تتميز بعدد محدود من الأصوات التي تشكل بدورها عدداً كبيراً من الكلمات، تكوّن عدداً لامتناهياً من الجمل.

أما اليوم، فإن اللغة اللفظية تتلاقى مع أنساق ميتوغرافيا. لكن لا يوجد أي مبرر لاختزال الواحدة في الأخرى، في المرحلة الأولى من تاريخ البشرية. لكن يبدو جلياً بأنه إنطلاقاً من الميتوغرافيا، تطورت اللغوغرافيا (نسق غرافي يعتمد على اللغة).

حسب فان جينكن/ Van Genneken، نجد مصدراً آخر للغوغرافيا، يتمثل في اللغة الإشارية. فجل الكتابات بالمعنى المحدد للكلمة، متضمنة في اللغوغرافيا.

ثمة مجموعة من المبادىء اللغوغرافية المتحكمة – بشكل مكمّل – في مختلف الكتابات. إن كتابة معتبة، تخضع لمبدإ واحد. تدخل في إطار نمذجة عامة. حسب ترتيب المبادىء وليس الكتابات.

أ – المبدأ الأول: يمكن أن ننعته بـ المورفمغرافية/ Morphémographie. حيث ترتبط العلامة الغرافية،

بوحدة لسانية دالّة. ويجب توظيف مصطلح المورفوغرافية، بدل بعض المصطلحات المتداولة والمغلوطة، من قبيل: الإيديوغرافيا/ Idéographie والإيديوغرام Idéogramme، إلخ... وفي كل الحالات، فإن العلامات الغرافية، لا ترتبط مباشرة بالأفكار. (لأنها تدخل في إطار الميتوغرافيا).

تُبرز الوحدات اللغوية الصغرى، - كما هو الشأن في اللغة الصينية القديمة، حيث يلتقي الإثنان - بأن الكلمات، هي المبرر الذي يوضح عدم ورود المرادفات في هذه الأنساق. لأن كل نسق لوغوغرافي، يبين اللغة وليس الفكرة أو التجربة.

ب - المبدأ الثاني: الفونوغرافيا/ Phonographie، أو العلامة الغرافية. تكشف عن وحدة لسانية غير دالة. عبارة عن صوت أو مجموعة من الأصوات. في الحالة الأولى، نتحدث عن الحروف الأبجدية/ Alphabets. وفي الحالة الثانية، عن المقاطع اللفظية/ Syllabaire. تاريخياً، يبدو الشكلان مترابطان. كما نجد - غالباً - المقاطع اللفظية السامية، ثم شكلا وسيطاً؛ المتمثل في الصوائت. (هنا تكمن الأهمية التاريخية للغة الفينيقية). في اللغات السامية، حيث يوازي غياب الصوائت؛ الإعراب باعتباره

هيكلاً صوائتياً. لقد عمل الإغريق - لأول مرة -، على تحديد - بشكل نسقي - جل الأصوات، متضمنة الصوامت(وظّفوا لتحديد ذلك، الحروف الفينيقية ذات طبيعة صامتة). مشكّلة الحرف الأبجدي بمعناه المحدد. إن الكلمات المستعملة من لدن الإنسان، (خاصة في اللغة اللاتينية والسيريلية/ Cyrillique)، مصدرها الحروف الإغريقية. إن مبدأ الصوت الغرافي، يرتبط تاريخياً بمبدإ الشكل الغرافي. لهذا نجد بأن المورفمغرام/ Morphémogrammes الخالص، (ينعت قديماً بالأفكار المرمورة أو الهيروغليفية Hiéroglyphes). وجلها تعمل باعتبارها مدلولات لمورفيم Morphème معين. أو وحدة لغوية، مبنينة بوصفها صورة لموضوع أو فعل. تدل عليه المفاهيم المعنوية. (متضمنة الإعراب). والتي يبرزها المستوى الصوتي/ Phonétique.

إن هذه المقدمة الفونوغرافيا/ Phonographisme قد أخذت اتجاهات عدة:

أ - **عن طريق الألغاز/ Rébus:** لعبت دوراً هاماً في إبراز كلمة بواسطة استعمال رمز آخر. ففي اللغة السومارية مثلاً، نجد علامة - السهم/ Flèche -، يشار إليها بـ Ti - وتساعد للإشارة إلى الحياة التي يشار إليها

كذلك بـ Ti -. إن مبدأ الألغاز، لا يشير إلى الماهية الخالصة للشيء. وفي اللغة الصينية - مثلاً -، يشار إلى العرّاف أو المخادع بـ won. وهي عبارة عن لغز، يستوجب البحث عن علاقة معينة حسب مبدإ معروف في علم الإشتقاق/ Etynologie العام. أما في بعض أسماء الأعلام، فيتم ربط حروف هيروغليفية لاشتراكهم في القيمة الصوتية. لكنها ترتبط بمبدإ اللغز. فعند الأستيك/ Aztéque مثلاً، يرتبط اسم العلم Quauhnawac - بالغابة، فكلمة quauh تعني غابة/ Forêt. أما كلمة Nawac فتعني قرب.

إن هذه الطريقة، قد أثرت في الأنساق الميتوغرافية. إذ، تحدد في لغة معينة بواسطة كلمات معينة.

ب - عن طريق الاستعارة من لغة أخرى:

إن هيروغليفية معينة، تنطلق من لغات مجاورة (ضرورة أن يكون هناك نوع من التشابه). يسعى هذا التجاور إلى التعبير عن نفس المعاني. لكنها تأخذ معاني مختلفة. إنه شأن الأكاديين/ Akkadiens. حين استعاروا مجموعة من العلامات السومارية/ Sumériens.

ج - عن طريق القيمة الصوتية:

في هذه الحالة، يأخذ كل حرف هيروغليفي،

قيمة كلمته الأصلية التي يشير إليها. شأن كلمة - ثور bœuf. تبدأ، كما لو أنها باعتبارها - a -. وهي الحرف الأول لكلمة - Aleph - والتي تعني - bœuf - (إن هذا ما يفسّر الكلمات المشابهة للحروف. كما هو الشأن في: العبرية، الإغريقية، إلخ...). إلا أن عمومية هذا المسار، جعلته محطة جدال دائم. يظهر أنه يتعلق - هنا - بعلم اشتقاق عام. غالباً ما يجعل من الاسم/ الحرف، وسيلة تقنية.

إن مساراً عاماً، يرتبط بالكتابات ذات الهيمنة المورفوغرافية. والتي ينعتها مؤرخو الكتابة بـ: المحددات السيميائية (أو المفاتيح)، عبارة عن علامات غرافية مضافة إلى الهيروغليفية الأصلية. تساعد على تحديد المترادفات وضبط معاني الكلمة: (في لغتنا تتجلى في اللواحق التي تحقق هذه الوظيفة الثانية). إن كلمة - Travailleur [عامل] - تفترق عن كلمة - Travailler [عمِل] -، لكنها تحمل معاً، نفس معنى كلمة - Travail . في اللغة السومارية، تحمل كلمة - Charue -، نفس الدلالة التي تحددها علامة كلمة - bois [خشب] -. وكذا الشيء نفسه للذي يستعملها، وهي علامة كلمة - homme [رجل] -.

لقد عرف هذا التحليل تطوراً بارزاً في الكتابة الصينية حيث نجد 214 محدداً. يرتب الكلمات في أقسام معينة عن طريق مقولات دلالية/ Sémantique. إن هذه المحددات لا يتلفظ بها. لأن مقولة معينة، تستوجب تحليلاً منطقياً للسان معين. الشيء الذي يبرر ما ذهب إليه مايبه/ Meillet، حين أشار بأن: الإنسان الذي اخترع الكتابة وأتقنها، يعتبر أكبر لساني/ Linguiste. وهو الذي اخترع اللسانيات. إن المهتم بالأبجدية كذلك، يفترض من جهته تحليلاً فونولوجياً/ phonologique للسان معين.

إن كتابة معينة، ليست تجسيداً خالصاً لمبدإ أو طريقة للكتابة. عكس ما نجد في العديد من وجهات النظر حول الكتابة الصينية. هذه الأخيرة، لا تدخل في إطار المورفمغرافيا/ Morphémographie أو الإيديوغرافيا/ Idéographique. وأكثر تحديداً، فإن العلامات الصينية؛ تستعمل إنطلاقاً من قيمتها الصوتية/ phonétique. وكذا فك الهيروغليفية المصرية، لم يعرف تقدماً. ولم يتم الكشف إلا عن القليل منها. والمتميز بقيمته الصوتية. خلاف الحروف اللاتينية (الغرب)، والتي لا تتميز كلها بالبعد الصوتي. قد يكون للحرف الواحد أصوات عديدة. كما قد يرتبط الصوت الواحد، بحروف عديدة. في حين نجد بعض العناصر الصوتية الأخرى،

(مثل: النبر/ Intonation) ليس لها مقابلاً غرافياً. عكس عناصر غرافية (الفاصلة مثلاً)، ليس لها مقابلاً صوتياً. شأن بعض العلامات الغرافية الأخرى: الأرقام، إلخ... لكن لها نفس وظائف الهيروغليفية.

* علم النحو Grammatologie:

اتخذت جل الدراسات المهتمة بالكتابة ، بُعداً تاريخياً (في أغلب الأحيان). ولم تهتم بمسألة فك رموزها. لكون بعض الكتابات، لاتزال تعرف نوعاً من الغموض. شأن: كتابة المايا/ Mayas، جزر الباك Pâques لازالت غير مفهومة.

إن مشروع كتابة - تاريخ الكتابة -، يتموضع في حدود الممكن. لأن التاريخ نفسه، يستوجب الكتابة بمعناها العام: وتعد غير ممكنة بغياب هذه العلامة الثابتة.

إن جل تواريخ الكتابة، تقبل مقترحات اللسانيات المعاصرة باعتبارها مسلمات. كما أن تطور اللغة والكتابة، يُؤخذ - دائماً - باعتباره حركة من الملموس إلى الخفي. وهو تقليص لهذه الإشكالية. ويكتفى الأخذ بعين الاعتبار، الوثائق القديمة جداً أو التسليم بوجود حركة غائية تتجه من الميتوغرافيا نحو اللغوغرافيا. من المورفمغرافيا نحو

الفونوغرافيا. إنطلاقاً من مبدإ النجاعة. لكن لاتزال الميتوغرافيا، مستمرة إلى اليوم. والكتابة الصينية، ليس أكثر صوتاً من الذي كانت عليه منذ ألف عام. هذه المسلمات، كانت نتيجة رؤيا سلالية. وليست ملاحظات.. لأفعال معينة. إلا أن المرحلة التاريخية لتراكم الأفعال، يجب تجاوزه عن طريق بناء علم نحو أو علم الكتابة. هذا الأخير، سيعمل على اكتشاف قوانين التطور. إلى جانب تعريف فعل الكتابة نفسها، وسط حركات دلالية/ Sémiotique أخرى. مع وضع نمذجة للمبادىء والتقنيات الغرافية.

إن أول مخطط لهذا العلم، نجده في كتاب جيلب I. J. Gelb – دراسة الكتابة/ A Study of Writing، أسس علم النحو/ The Fondations of grammatology (1952). أما في فرنسا، فإن هذه الدراسة، قد اتخذت شكل نقد فلسفي للتصورات الأساسية للكتابة واللغة. تستوجب دراسة الكتابة الإندراج ضمن رؤيا سلالية لكونها ترتبط بالسحر، والإشراق. أكثر من الكلام.

الهوامش

* النص عن:

Ducrot (Oswald), Todorov (Tzvetan), Ecriture, (IN) Dictionnaire Encylopédique des Sciences du Langage, 4 TR, Éd. Seuil, coll, Points, Paris, 1979, P: de 249 ã 256.

** تزفيطان تودروف: ناقد وباحث فرنسي. له مساهمات عدة في مجال البويطيقا وعلم النص والأجناس الأدبية.

من أعماله:

- Introduction ã la littérature Fantastique (1970), Poétique de la prose (1971), Poétique (1973), Théories du Symbole (1977), Les Genres du discours (1978), Crutique de la Critique (1984), etc...

* * *